

التكاذيب - عندنا - بعناصرها الأربعة صارت أساساً للشعر من خلال تحرك هذه العناصر فيه. فالليل والفرس والسهم والظبي كلها قيم شعرية غنية في موروثنا الشعري. ولو نزعناها من هذا الموروث لاختفى معظم هذا الشعر. وإنه لمن الممكن جداً أن نقرأ وأن نفسر الشعر العربي كله من خلال هذه العناصر الأربعة. فهي له ولنا مفاتيح دلالية شاعرية تكشف عن النص وتحيل إليه.

ولأن التكاذيب أساس تكويني في الشعر والرواية فإن أخذها مأخذ الجد يصبح شرطاً لفهمنا لها من جهة، ثم لإعطائها حقها المعنوي من جهة ثانية، بوصفها جنساً أدبياً له شروطه الخاصة في الإنشاء وفي القراءة وفي التفسير.

ولنعد - مرة أخرى - إلى حكاية التكاذيب حيث الأعرابيان وحيث النص، ولسوف نرى هنا أن هذه الحكاية لا تتجه نحو غاية نفعية محسوسة، مما يجعلها حرة من شروط النفع أو الضرر. ولو حاولنا تعريف هذه الحكاية بالسلب لقلنا إنها ليست نفعية وهذا واضح، وأنها لا تقوم على المخادعة والتحايل المسلكي، لأن المشاركين يدركان اللعبة ويفهمان النية والغاية من القول، ولا أحد منهما يخادع الآخر أو يضحك عليه. وهي لا تقوم على التزييف ولا على استغلال المتلقي، وليس من وراء إنشائها أي مصلحة مادية أو شخصية.

وبما أنها ليست كذلك فهي إذن نشاط لغوي تخيلي له وظيفة إنشائية إبداعية تعتمد على المهارة والفتنة والذكاء. فهي - إذن - تماثل الشعر، كما يعرفه الجرجاني في أنه (علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء، ثم تكون الدربة مادة له⁽⁵⁶⁾).